جمالية الرّمز في قصيدة المقاومة الفلسطينية عند محمود درويش: دراسة تحليلية في نماذج مختارة

The Aesthetic Symbol in Mahmoud Darwish's Palestinian Resistance Poem: An Analytical Study of Selected Models

ط د. فاطمة الزّهراء زهدور [1](1)
مخبر الدّراسات الأدبية والنقدية وإعلانها في المغرب العربي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان) الجزائر)
fatimazahra.zehdour@univ-tlemcen.dz
أ د. محمد مرتاض (2)
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وإعلانها في المغرب العربي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان) الجزائر)
Cmortad2002@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2023/03/10	تاريخ القبول:2024/05/29	تاريخ النشر:2024/06/30

الملخص:

تميّز الشّعر العربي الحديث خصائص فنّية تختلف باختلاف أغراضه، ومن هذه الخصائص حضور الرّمز على أكثر من صورة في تشكيل القصائد ونسج معانيها، خاصّة القصائد الثّورية الملحمية، ومن هذه النّماذج؛ بل من أشهرها الرّمزية في قصائد المقاومة الفلسطينية عند الشّاعر محمود درويش، والتي لازمت قصائده مع التزامه بقضايا الأمّة، لذا تهدف هذه الدّراسة إلى الكشف عن صور ومضامين الرّمز في نماذج مختارة من أعماله.

[1] المؤلف المرسل

وباعتماد منهج النقد والتّحليل لنماذج من مقطوعات شعرية في قصائد المقاومة، ثمّ محاولة استكشاف مضامينها ودلالاتها الخفيّة تأويلا، توصّلت الدّراسة إلى أنّ صور الرّمز تعدّدت عند محمود درويش وتباينت، وقد غلب عليها الرّمز الدّيني والطبيعي (البحر، الحجر، الزّيتون)، وكذلك جاءت فيها العناوين على رمزية فنّية وظيفية، ويعكس حضور هذا الرّمز عند الشّاعر تنويع الدلالات، وجمالية الانزياح، وثراء المعجم الشّعري، وانتقال القصيدة من المباشرة والتّصريح إلى الإيحاء والجمالية والتّأويل.

الكلمات المفتاحية: الرّمز، الرّمزية، الشعر، فلسطين، الجمالية.

Abstract:

Modern Arabic poetry has artistic characteristics that differ according to its purposes. Among these characteristics is the presence of the symbol in more than one form in the formation of poems and weaving their meanings, especially the epic revolutionary poems. Among these models are Rather, one of the most famous is the symbolism in the poems of the Palestinian resistance of the poet Mahmoud Darwish, which accompanied his poems with his commitment to the issues of the nation, so this study aims to reveal the images and contents of the symbol in selected samples of his works.

By adopting the method of criticism and analysis of samples of poetic stanzas in the poems of the resistance, and then trying to explore their hidden contents and connotations in an interpretation, the study concluded that the images of the symbol were numerous and varied in Mahmoud Darwish. It contains functional artistic symbolism, and the presence of this symbol in the poet reflects the diversification of the connotations, the aesthetic of displacement, the richness of the poetic lexicon, and the transition of the poem from direct and explicit to suggestive, aesthetic and interpretation.

Keywords: symbol, symbolism, poem, Palestine, Aesthetic.

مقدمة:

لطالما واكب الشعر منذ القديم قضايا المجتمع في صورة التزام الشّاعر التام بآلام وهموم الأمّة، لذلك كان الشعر التحرّري في الوطن العربي من أكثر الأجناس الأدبية مرافقة للثورات خاصّة الثورة الفلسطينية ومقاومتها للاحتلال الصهيوني الظالم، فقد أدى هذا الشعر عبر دواوين وقصائد الكثير من رواده الدور القيادي في نصرة الشعب الفلسطيني والعربي عامة، وكان منبرا يجمع بين صدق المعنى وجمالية التّشكيل، ولم يمنعه التزامه من التّأثر بسمات الحداثة والتّجديد، والتي من أهم خصائصها خاصية الرمزية، ذلك أنّ سرد المعاني في قالب شعري واضح يفقد الشعر جزء كبيرا من جمالياته، وهذا ما كان داعيا لرواد التجديد تضمين قصائدهم بالرمز على اختلاف أنواعه وتعدد مقاصده.

وإذا كان عميد شعراء القضية الفلسطينية محمود درويش من أكثر الشّعراء غزارة شعرية، ومن أكثرهم التزاما وتصويرا لهموم الشعب الفلسطيني وتخليدا للمقاومة والملاحم، ودعوة للثورة التحررية، فإنّ هذا لم يمنعه من التأثر بحداثة الرّمزية من خلال توظيفه المميّز لأنواع الرمز؛ الديني، الطبيعي، الأسطوري، وحتى رمزية العنوان، فقد كانت عنده توحي عنده إلى الكثير من الجمالية والإبداع، كما تجانس ذلك مع حسّه المرهف وعاطفته الصادقة تجاه قضيته، والتي تنبعث من حبّه الكبير للأرض الفلسطينية وما يكابده الشاعر من ألم في غربته، ولعلّ معاناته في الغربة واحتكاكاته بأدباء وشعراء مرموقين فجر عنده تلك السّمات الفنّية الرّاقية التي أهلته ليبدع في كتابة القصيدة المعاصرة.

في هذا السّياق، واستكشافا للموضوع أكثر، نسلط الضوء من خلال هذه الورقة البحثية على الرمزية وجمالياتها عند محمود درويش في القصائد الثورية أو ما يعرف بقصيدة المقاومة، وهذا يدعونا إلى طرح الإشكاليات الآتية؛ ما مفهوم الرّمز والرّمزية في الشّعر؟ وما المقاصد والأغراض الجمالية في توظيف الرّمز عند محمود درويش من خلال قصيدة المقاومة؟

وللإجابة على الإشكال المطروح، والوصول إلى الهدف الأساسي من البحث – جماليات الرمز عن محمود درويش في قصيدة المقاومة– ارتأينا تتبع بعض النماذج المختارة من قصائده بالنقد والتحليل، وهذا بعد تقديم مفهوم موجز عن الرمز والرمزية عند محمود درويش، ثمّ عرض نماذج تطبيقية للرمز الديني والطبيعي، وكذلك رمزية العنوان بحكم القيمة الفنية التي يمنحها الرمز في عتبة العنوان، وضبطا للموضوع ارتأينا عرضه على النحو الآتي:

مقدمة:

2. الرّمز ومفهومه عند درويش:

3. صور الرّمزية ودلالاتها في شعر محمود درويش:

1.3– الرّموز الدّينية:

1.3– الرّموز الطبيعية:

أ– رمزية البحر:

ب. رمزية الحجر:

ج– رمزية الزيتون:

4– رمزية العنوان عند محمود درويش:

خاتمة:

2. الرّمز ومفهومه عند درويش:

تعتمد اللغة الشّعرية المعاصرة على استخدام الصور الفنّية من خلال الرمز كأحد عناصر التصوير الفني المعاصر؛ فهو يعطي أبعادا ودلالات تخرج من المحتوى المألوف إلى تقديم إضافات "تركيبية وجدانية تنتمي إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع"[1]، ويقترن الرّمز بلغة الإشارة والتلميح، لذل قيل بأنّه "تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إنابة الصوت، إنّما هو إشارة بالشفتين"[2].

وبخصوص مفهوم الرمز، فقد عرّفه قدامة بن جعفر اصطلاحا في كتابه "نقد الشعر قائلا في وجوده "أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدلّ عليها"[3]، فالرمز إذا هو المعاني الخفية التي يوظفها الشاعر للوصول إلى أبعاد أخرى.

تطوّر مفهوم الرمز عندما استلهم النص الشّعري العربي الحديث تقنيات جديدة من النص العربي، حتى توسع مصطلح ليكوّن علاقات بين المعنى المعجمي والمعنى الخفي العميق؛ لذلك توسع الناقد تودوروف في تعريفه بأنّه ذو دلالة شاملة تتجاوز الكلمة فيه المعنى المعجمي إلى معنى جديد؛ فكلمة لهيب مثلا إذا وظفت توظيفا استعاريا قد ترمز إلى الحب[4]، ثمّ بيّن الناقد أنّ مدلول كلمتي لهيب، حبّ يستقلان في الأصل عن بعضهما؛ فلم تكن العلاقة بينهما خارج الرّمزية ضرورية.

ولعلّ حدّة الأزمة في فلسطين وتفاقم الأوضاع السّياسية والاجتماعية والأمنية فيها، أجبر شعراء المقاومة على الاعتناء بالرّمزية الشّعرية للدلالة على واقع مرير يعيشه الشّعب المضطهد؛ فصورة الرمز في النص الشّعري تؤدي دورا مهيّمنا في الكشف عن رؤيا الشّاعر وترجمة خبراته وأحاسيسه المتناقضة،

لذلك تعدّدت الدّلالات في القصيدة الشّعرية الفلسطينية، وبرزت الرّموز في أشعار عميدها الشاعر محمود درويش، وربّما تعود هذه الكثرة إلى صور الصراع المختلفة التي يعيشها الإنسان الفلسطينية؛ فضياع الوطن وتمكّن العدو فيه، والمصير المجهول الذي أثقل كاهل الشّعب، كلها دوافع أسفرت عن وعي عميق عند الشّاعر بضرورة "التعايش بين كل أشكال التعبير الأدبي والشّعري"[5].

يقول درويش واصفا الرّمز: "الرمز عندي كما تراه ليس مبهما، إنّه يكتشف بسرعة، وهو أول الأمر وآخره بديل للتعبير المباشر، كان من دوافع لجوئي إلى الرمز في البداية محاولة

تخطي الواقع الذي لا يتيح لي إمكانية الحديث بشكل مباشر لأسباب سياسية؛ فكان لابدّ من ممارسة الاحتيال الفنّي ليعكس واقعي، إنّ استخدامي الرّمز جاء لإغناء واقعي وخدمته"[6].

نستشف من مقولة الشّاعر أنّ وظيفة الرّمز يسهم في فهم رؤى الشّاعر وخيراته، ويهدف إلى إبراز شعرية النص وجماليته، ما يساعد المتلقي على قراءة اللغة بإبداع جديد في فكّ شفرة القصيدة، ويضيء الغامض منها في هذا العالم الشّعري، ف "إدراك العالم بالرّموز هو شرط الفنّ العظيم"[7] حسب رؤية الفيلسوف فريديريك نيتشه.

وقد اتخذ درويش أنواعا كثيرة من الرّموز تعبيرا عن هذا الفضاء الخانق الذي تضيق فيه النفس، وعن الظلام القاتم الذي يتخبّط فيه الشّعب، فحين يرى شعبه مكبلا بقيود المستعمر، يرزح تحت نيران الظلم والغطرسة والفقر، فتتأجج القصائد متفاعلة لتحمل رموزا تعكس دلالات جزئية مختلفة تتضافر كلها في نصرة الشّعب والوطن، إنّها تضفي علائق جديدة مشروطة برؤية ذاتية، فيكثّف الشّاعر هذه الصور ويقوّي عنصر التّرميز حتى تكتسب القصائد أبعادا متجدّدة[8].

هكذا أصبح الرمز ملمحا تكوينيا في القصيدة الفلسطينية الحديثة؛ إذ خلق لغة رمزية جديدة في النص الشّعري تتجاوز اللغة المعجمية المألوفة إلى لغة أخرى ذات أبعاد لغوية وجمالية تتأثر بواقع الفلسطيني وصراعه الدائم مع الكيان الصهيوني. وتحتاج قراءة الرّمز في النّص الشّعري إلى دراسة عميقة؛ فالقراءة الأولى غير كافية لتبيان ملامح هذا الرّمز؛ إذ لا يمكن قراءته منفصلا، بل تحدّد دلالته ضمن السّياق الكلّي للجملة؛ فالرّمز "صورة مغلقة تظلّ أقرب إلى السّر الذي يكون أقرب بين الشّاعر وتجربته"[9].

انطلاقا مما سبق، استلهم درويش رموزه من مصادر مختلفة، واعتمد على الرّموز الطبيعية والدّينية والتّاريخية والتّراثية، ذلك ليفصح عن دلالات مكبوتة في شعوره باللّذة النّفسية التي يولدها المزاج الخيالي الغامض[10].

3. صور الرّمزية ودلالاتها في شعر محمود درويش:

1.3- الرّموز الدّينية:

وظف الشّاعر رموزا دينية من الإسلام والمسيحية، ومن التّوراة القديمة أيضا ليدافع عن موقفه الثوري، ويخدم قضيته الوطنية من وجهة أخرى، ومثال هذا ما اتّخذه الشّاعر من رمز هاجر زوجة النبي إبراهيم عليه السلام ليعبّر عن هجرته الطويلة، وهجرته تمثّل هجرة الشّعب في الشّتات وخروجه من الموطن الأصلي إلى وجهة غير معروفة، ومصدر هذا الرمز القرآن الكريم في قول الله تعالى: "ربنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة بين الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثّمرات لعلهم يشكرون"[11]، يستند درويش إلى رمز هاجر قائلا في قصيدة الخروج من ساحل المتوسط:

هَلْ تَذكُرونَ دُمُوعَ هَاجَر أوَلَ امْرأَةٍ تكْتفي هِجْرَة لاَ تَنْتَهي

يَا هاجَر احْتفِلِي بِهِجْرَة الجَديدَة مِنْ طُلوعِ القَبْر[12].

يحمل رمز هاجر دلالة جديدة تعبّر عن رؤية وجدانية تتمثّل في خروج الفلسطيني من أرضه، ويمكن تجسيد هذا الرّمز على النّحو الآتي: هاجر (شخصية دينية في الثقافة الإسلامية)، هاجر (رمز التّوكل والصبر)، هاجر (رمز ثوري وجداني يجسّد البطولة والمقاومة في القصيدة الثورية).

وربما يقصد درويش مغادرته وترك لأرضه والتجائه إلى بلدان عربية أخرى، لكنه يحمل في نفسه المثابرة مثابرة السيدة هاجر عليها السلام وتوكلها على الله تأسيا بها ليقاوم المحنة الدامية والمصائب المتلاحقة، ثمّ يستحضر الشّاعر رمزا إسلاميا، وقدوة في العطاء، النبي محمد صلى الله عليه وسلم لفكّ الأسر، وهذا في قصيدته نشيد الرجال:

ألُو..

أُريدُ مُحمَّد العَرب..

نَعمْ! منْ أنْت؟

سَجينٌ فِي بِلاَدي.

بِلا أرْضٍ

بِلا عَلمٍ

بِلاَ بيْت[13].

هو يناشد الشّاعر محمّدا صلى الله عليه وسلم رمز النجاة والنّصر، فيحثّ كلّ محمد عربي على النضال، ويشحنه بالمقاومة من خلال رمزية قائد العرب ورسول الحكمة حتى ينير دربه ودرب شعبه المضطهد:

مُحمَّد (شخصية دينية فذّة، نبي الإسلام، رمز القيادة والجهاد)، مُحمَّد (الثبات والإيمان والشّهادة)، مُحَمَّد (ثوري ويدلّ على الانتصارات).

ومن الرّموز الدّينية المسيحية يستلهم أيضا درويش شخصية دينية أخرى تتمثّل في النّبي عيسى عليه السّلام الذي خلص قومه بني إسرائيل من جبروت الكفر، وسعى في نصرة الضعفاء والمرضى والمحتاجين، وهو ما يرمز إليه في القصيدة نفسها فيقول:

أُلُو...

أُرِيدُ يَسُوعْ

نَعم! مَا أَنْت؟

أنَا أحْكِي مِن "إسْرائيل"

وفِي قدَمِي مَسَامير... وَإكْليلٌ

مِنَ الأشْواكِ أحْمِلُه

فَأيُّ سَبيل[14].

ولعلّ رسالة درويش بالرّمز عيسى واضحة؛ فهو يبحث عن أمل يتشبّث به ليتغلّب على اليأس، ويتطلع بعين المنكسر الضعيف الباحث عن قوة سامية ترشده إلى طريق النّجاة، وكأنّ الشاعر واحد من هؤلاء الضعفاء الملازمين للقائد عيسى المخلص، يؤمن به، ويدين بديانته، ويستشيره في أزمته وصراعه: عيسى (شخصية دينية، رمز القداسة والبطولة، رسول الضعفاء)، عيسى (رمز ثوري مقاوم يدلّ) عيسى، الصبر والمقاومة والتحدي

ويعود بنا درويش إلى العهد القديم فيستحضر رمزا دينيا آخر يبرزوا فيه قمة العمق الإنساني الداعي إلى نشر السلام وزرع الأمن، وتخليص الناس من براثن العبودية ونبذ التجبر والظلم والعدوان، ويتأثر بنوح حمامته، وينعى سلاما على أرضه، لكنه لا يريد مغادرة هذه الأرض كما هاجر نوح مع المؤمنين قبل الطوفان، وإنما هو فلسطيني الدم والأرض والأصل، جذوره راسخة في هذا الوطن، يقول محمود درويش في قصيدته مطر:

يَا نُوحُ!

هَبنِي غصْنَ زَيتُون

وَوَالدتي.. حَمَامَة!

إنَّا صَنعنا جَنَّة

كَانَتْ نِهَايتها صَنَادِيق القُمَامَة

يَا نُوحُ لا تَرْحَلْ بنا

إنَّ المَمَاتَ هنا سَلَامَة

إِنَّا جُذُورٌ لاَ تَعيشُ بِغيْر أَرْضٍ

وَلتُكنْ أرْضِي قِيَامَه![15]

1.3- الرّموز الطبيعية:

كثيرة هي الرموز الطبيعية التي استعان بها الشاعر في قصائده الشعرية، والرمز الطبيعي وعنده من أهم الرموز التي تشكل عناصر إبداعه الفني، إذا يستعينوا برمزيته ليبرز رؤيته الخاصة تجاهل وجودي في عيد قراءة واقعي قراءة عميقة، مما يضفي على عملية الإبداع نوعا من التميز والخصوصية.

وقد تكررت رموز الطبيعة في هذه النصوص؛ ذلك أنّ محمود درويش ميال إلى الطبيعة وعناصرها، ويتأثر بإيحائها، وينهل من ماديتها، لكن هي تجاوزها ليعبر عن أبعاد وجدانية ونفسية ترتبط بواقع هو أوضاعه، وقد أعلن كولريدج " ألا الشاعر يجب أن يحاكي مظاهر خارجية، وإنما عليه أن يأتي نفسه عن الطبيعة، وبقوة النفس الواعية يولد ما تعبر عنه الطبيعة الخارجية"[16].

من الرموز التي تتنوع في شعره: الأرض، المطر، التراب، الزيتون، الفراشة، القرنفلة، الحجر، الريح، البرتقال، وغيرها، وسنحاول الاقتصار على الرّموز المهيمنة داخل النص الشعري، وما تحمله من دلالات متعلقة بالسياق:

أ- رمزية البحر:

اختلفت دلالات استخدام البحري في النصوص الدرويشية، وتعددت مضامين هذا الاستعمال باعتباره شاعرا وطنيا يتحسر على مقالي أرضه وبلده، ويسعى إلى التجلد لمجابهة الخطر من البحر يستمد معاني القوة والجبروت، إذ يتخذه رمزا للثورة والتحدي والعنفوان:

لَوْ كانَ لِي فِي البَحرِ أَشْرِعَةٌ

أخَذتُ المَوْجَ والإعْصَار فِي كَفِّي

وَنومْتُ العُباب[17].

ثم يتأثر بجمال الطبيعة وجمال حبيبته فيأخذ رمز البحر دلالة على الجمال والرونق في ابتسامة من يحب:

أَحلُمُ أنْ أرَى عَينيْك يومًا تنْعسَان

فَأرَى هُدُوءَ البَحْرِ عِنْدَ شُرُوقِ شَفتَيْك

وهي صورة تقليدية سهل تفكيك عناصرها واستقراء دلالتها؛ ومن الدلالات العميقة رمز البحر:

مِنْ ثُقوبِ السِّجنِ لاقيْت عُيونَ البُرتقَال

وعِناقَ البَحرِ والأفْقَ الجَميل[18].

هنا يضفي على البحر عنصرا حسيا جديدا إذ يقرنه بفعل العناق، فهو يعاني ويلات السجن والضيق ومرارة الأسر، ويفتح مسافة فنية بين هذا السجن والبحر الفسيح الممتد وبين الصورتين يرسم الشاعر ذاته المفجوعة وآمالا يسعى إلى تحقيقها، ثمّ يستعين الشعر بالبحر حين يهم بمواجهة واقع الحصار والموت المرير؛ فهي شعر دلالته متجدّدة بعيدة عن معناها الحقيقي:

يُخيَّلُ لِي أَنَّ بَحْرَ الرَّمَاد

سَينْبتُ بعْدي

نَبيذاً وَقمْحًا

وَأنِّي لَنْ أطْعِمه

لأنِّي بِظُلمَةِ لَحْدي

وَحيدٌ مَعَ الجُمْجُمَة[19].

ولا يستخدم الشّاعر الرّمز البحري لغاية جمالية فنّية فحسب، وإنّما هو أداة لتحقيق هدف أسمى متعلق بالقضية الوطنية التي يناضل من أجلها؛ فدرويش على يقين أنّ بحر الرماد هو الذي يشعل ثورة النصر، وستثمر بذوره لتغدو نماء وازدهارا.

وتتطوّر الدلالات تارة أخرى وتتنوّع، فبعد أن كان البحر مجالا لاستقبال الفلسطينيين والرجوع إلى ديارهم، تحوّل إلى بوابة نحو المجهول، وأضحى سجلا لوقائع مأساوية تسجّل عبر التاريخ: "تأملات سريعة في مدينة قديمة وجميلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط":

يَا بَحْرَ البِدَايَات، إلَى أيْنَ تَعُود

أيُّها البَحرُ المُحاصَر

بَيْنَ إسْبَانيَا وصُور

هَا هِي الأرْضُ تدُور

لِمَاذا لاَ تَعُود الآنَ مِن حَيْثُ أتَيْت

أَمْ مَن ينْقذ هذاَ البَحر

دَقَّتْ سَاعَةُ البَحْر

تَراخَى البَحْر[20].

ولعلّ قارئ النص الشعري يلمح انتشار لفظة البحر وتكرار الكلمة أكثر من مرة، وهي صوت الفنّيات على بنية التّكرار؛ فالرمز البحري في قوله أيها البحر المحاصر، يعود دلالة على الشعب الفلسطيني المحاصر، وتأتي دلالته لتبرز مأساة الشعب الذي يعاني تشردا وموتا ومصيرا مجهولا، ثمّ يوقف البحر بعبارة أخرى في دقّت ساعة الرحيل، إذ يوحى برحلة نفي التي تبدأ ولا يعلم وقت انقضائها.

البحر:

الدلالة التقليدية		الدلالات المبتكرة
القوة	العظمة	العنوان والثورة
الرزق	الوفرة	التشرد والضياع
الجمال	الراحة والهدوء	المفاجآت – المجهول

ويبقى هذا الرمز مفتوحا لدلالات جديدة وقراءات أخرى في سياقات مختلفة.

ب. رمزية الحجر:

نسجّل تواصلا بين الحجارة والإنسان في المشهد الفلسطيني؛ فتوظيفه يوحي بدلالات تختلف عن الصورة الحسّية العادية، ومن اللافت للنّظر أنّ الحجر متعدّد الإيحاءات، يمكن أن نصفه برمز الإيجابي في الحياة العربية الفلسطينية؛ إذ يحقق التكامل بين أبناء الأرض، وهذا ما أشار إليه الشاعر في قصيدته:

أَنَا الحَجَر

أنَا الحَجرْ الّذي يُمَثُّله زَلزلَة

رَأيتُ الأَنْبِيَاء يُؤْجِرونَ صَلِيبهُم

واسْتَأجَرَتْنِي آيةَ الكُرْسيّ دَهرا

ثمَّ صِرْتُ بطاقةً للتَّهنئة

تغير الشُّهداء والّدنيا

وهَذا ساعدي

تتَحرَّك الأحْجار

فالتَّفوا علَى أسْطُورتي[21].

وإذا تمعن القارئ مليّا في الأبيات، لوجد أنّ الحشرة أصبحت الصورة في يدّ درويش، إنّه سلاح الأول في يدّ المناضل، والقضية الخالدة في كفّ الشّهيد، يناله وبيده ويحرّكه إلى السّماء، ثمّ يعود إلى الأرض ليحقق رسالته، ورسالته في الحياة الخلود والبطولة.

تغير الدلالات: الحجر (اسم يدل على جماد)، الحجر (رمز البطولة والشهادة)، الحجر في القصيدة (رمز الانتفاضة، رمز الخصب والاخضرار، رمز الصبا)

ج- رمزية الزيتون:

شجرة الزيتون شجرة مباركة، أقسم بها الله تعالى في الآية الكريمة: "والتين والزيتون"، وقد عرفه الإنسان منذ القدم، غرسها واستفاد من ثمارها وعالج بزيتها، واستوقد أغصانها، كما استعملها شعارا للمحبة والسلام بعد الطوفان، وقصة الحمامة مع النبي نوح عليه السلام، ومن خصائصها أنّها تعمّر طويلا ودائمة الاخضرار، لذلك كان للشجرة نصيب وافر في شعر درويش؛ فقد سمى ديوانه الأولى بأوراق الزيتون؛ لأنها مقدسة في فلسطين، مشهورة بين الأشجار، وخالدة أزلية الذّكر. واستعمل رمز الزيتوني دلالة على الأرض، لكن إيحاءاته تتغيّر من قصيدة إلى أخرى، فتارة يستلهم هذا الرّمز للدلالة على الغضب العربي والثورة فيقول:

أورْشَليم. الَّتي أَخذَتْ شَكلَ زَيتُونة

دَامية.. [22].

وتارة أخرى يحلم بغد مشرق، فيرسم مستقبل السلام، ويحتفل مع أبناء فلسطين بالأمن والاستقرار، ليكون غصن الزيتون رمزا للسلام في قصيدته:

يَحلُمُ بِالزَّنَابِقِ البَيْضَاء

بِغصْنِ زَيتُون

بِصَدْرِها المُورِقِ في السَّمَاء

يَحلُم- قالَ لِي- بِطَائر

بِزهْر لَيْمون[23].

وتتوالى الرّموز في نصوص درويش حتى أصبحت جزء من كتابته الإبداعية، وأضافت إيحائية جمالية مختلفة ومتناقضة أحيانا تنطلق في مبدئها من هواجس شعرية تكمن في الرغبة الجامحة للانتقال من عالم القبح والاغتراب والمنفى إلى عالم الانعتاق والحرّية

والجمال، ونعرض هنا بعض أنواع الرّموز الطبيعية التي اعتمد عليها محمود درويش في قصائد المقاومة ودلالاتها في النصوص الشعرية:

الجدول (01): نماذج الرّمز الطبيعي في قصيدة المقاومة

الرمز	صورته ومعناه	دلالاته في القصيدة
آه	حشرة طائرة جميلة	السفر والترحال، الأرض، الحرية، العاشق للشهادة، الاحتراق.
الريح	حركة الهواء	الدمار، الخراب، الجدب، العقم، الخصب، الاحتلال، الهمجية، التيه.
القمر	جرم سماوي	الثبات، السفر إلى المجهول، الأرض المسلوبة، الجمال.
النار	طاقة حرارية	الغضب، الحقد، الثورة، الصمود، الانتقام، الاحتلال.
الزيتون	شجرة مباركة	العروبة، الأصالة، الثبات، الصمود، استمرارية الحياة.
التين	شجرة مباركة	التوحد مع الأرض، الخلود، الخلق، الصمود.

المصدر: إعداد الباحثة من خلال النماذج المختارة من القصائد

بهذا يصبح للشاعر الحق في اختيار رموز متعدّدة يشكّلها تشكيلا جديدا ليتعايش مع واقعه، ويعالجه برؤية فنّية ووعي جمالي؛ فالفن هو أحد طرائق المعايشة الفنية للموضوع، ولابد أن تنعكس بعض صفات الجمال على النص الشعري الواقعي.

4- رمزية العنوان عند محمود درويش:

إنّ العنوان هو شفرة النص؛ وهو "لا يقلّ أهمية عن المضمون، وغالبا ما يثير فضول القارئ ويدفعه إلى رغبة القراءة لمعرفة المحتوى"[24]، لهذا عمد محمود درويش إلى انتقاء عناوين دواوينه برمزية خاصّة؛ ونأخذ على سبيل المثال الديوان الأول الذي وسمه "أوراق

الزّيتون" عام 1964، وضمّنه قصائد ثورية متنوّعة؛ تمجّد الوطن، وتبكي الشّعب المضطهد، وتدعو إلى الثّبات والنّضال، وهنا نتساءل: ما سبب اختيار هذا العنوان؟ وماهي دلالاته؟

شجرة الزيتون شجرة فلسطين المباركة، غرسها الفلسطيني وفي أرضه، واتّخذها مصدر رزق له، وتفاءل بخضرتها الدائمة؛ فقد هبته ثماره اليانعة، وزيتها المبارك، وكانت جذورها الثابتة رمزا لأصالة الفلسطيني في وطنه، وقد ألهمت الشجرة الشاعر منذ طفولته؛ إذ اشتهرت قريته البروة بغرسها كما هي عادة القرى والحقول الفلسطينية، واستحضرها درويش في الكثير من أبياته ليعبّر عن أرضه المغتصبة تارة، أو أملا في عودة الأمان والسلام تارة أخرى، أو رمزا للتجدد وعودة الحياة طورا آخر.

والعنوان في الديوان ينبع من نفس مسالمة، ترجو عودة الهدوء والاستقرار، وتأمل رجوع أبناء الأرض المشتتين الفارين ليعيد وجه الحياة إلى الوطن الأم (فلسطين)، وكأنّ لسان حاله يقول: فلسطين حمامة تهفو على ورقة زيتون خضراء تعلن بها نهاية الطوفان.

4. خاتمة:

خلاصة ما توصلنا إليه في هذا الموضوع، وبعد تتبع الرمزية وصورها وجمالياتها في قصيدة المقاومة عند درويش أنّ الرمز كانت سمة بارزة وبنسبة جلية ومعتبرة في قصائد درويش الثورية، وقد تميز هذا الرمز ببعد جمالي فني وبعد وظيفي في بناء معاني مضمرة وخفية في القصيدة، وجاء على صور كثيرة عرفنا منها الرمز الطبيعي، وكذلك الديني إضافة إلى رزية العنوان، ويمكن سرد النّتائج النّهائية للدّراسة فيما يلي:

- على غرار شعراء الحداثة، نجد شعر محمود درويش زاخرا بأبرز السمات الحداثية في قصائده، خاصة قصائد المقاومة منها، وربّما هذا لكونه واسع التّخيل، وصادق المشاعر مع الملاحم الفلسطينية والشوق لأرض فلسطين الطاهرة.

- كان حضور الرّمز في قصائد محمود درويش في صورة تقنية فنّية جمالية وظفها الشاعر ليضفي دلالات متعدّدة في نصوصه الشعرية، ممّا يمنح قصيدة المقاومة قوة وإيحاء.
- تعدّد أشكال الرمز عند الشّاعر، خاصة الرمز الديني منه وكذلك الطبيعي من خلال نماذج تتمتع بقوة إيحائية كالحجر دلالة على الثّورة الفلسطينية، والزيتون كناية ووصفا لأرض فلسطين الطاهرة، وكذلك دلالة البحر التي يجد فيها الشعراء ملاذ السكينة والتأمل، وهيجان موجه كهيجان المقاومة والثورة.
- شكّل الرمز في عنوان القصائد الثورية عند محمود درويش شحنة دلالية تجعل القارئ أمام فضاء من التأويل، بل تدعوه إلى اشتياق معرفة وقراءة القصيدة قراءة عميقة في مضمراتها.
- يفرض الرمز عموما على القارئ في شعر درويش قراءة واعية تدفعه إلى البحث عن المعاني الخفية خلف المفردات، وتجعله طرفا فاعلا يسهم في تقريب الأفكار والمعاني، وبذلك تصبح العلاقة بين الشّاعر والملتقي علاقة الناقد الذي يغوص لينهل من جمالية النص الشعري والكشف عن تعدّد المعاني وتمييز دلالات الإيحاءات في القصيدة.

5.الإحالات والهوامش:

[1]- عزّ الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنّية والمعنوية، (1981)، بيروت، ط3، ص127.

[2]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم ابن منظور، لسان العرب، (2007)، دار صابر، بيروت، المجلد12، ج5، ص356.

[3]- قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، (1978)، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، ص154.

[4]- Oswald du crot tvc ctam, dictinnaire, encyclopedique des sciences du langue, 1972, edition du seuil, Paris p: 135.

[5]- حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، (1991)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص26.

[6]- محمد دركوب، لقاء مع الشاعر محمود درويش، حياتي وقضيتي وشعري، (2011)، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، إيران، ع5، ص25.

[7]- عدنان المبارك، الرمزية الشّعرية، (2002)، جريدة الزّمان، لندن، ع1293، ص16.

[8]- ينظر: بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد الحديث، (1994)، المركز الثقافي، ص39.

[9]- نعيم اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، (1985)، دمشق، ص284.

[10]- ينظر: مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، (1981)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، ص101.

[11]- سورة إبراهيم، الآية 37.

12- محمود درويش، الديوان، الأعمال الكاملة، (2009)، رياض الرّيس للكتب والنشر، لبنان، دط، ص134-135.

[13]- المصدر نفسه، ص165-166.

[14]- المصدر نفسه، ص166.

[15]- المصدر نفسه، ص124-125.

[16]- إحسان عباس، فن الشعر، (1979)، دار الثقافة، بيروت، دط، ص87.

[17]- محمود درويش: الديوان، م1، ص98.

[18]- المصدر نفسه، ص78.

[19]- المصدر نفسه، ص73.

[20]- المصدر نفسه، ص171.

[21]- المصدر نفسه، ص132.

[22]- المصدر نفسه، ص303.

[23]- المصدر نفسه، ص203.

[24]- نزاورة ولد أحمد، شعرية القصيدة في اللهب المقدس، (2008)، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، دط، ص48.

6- قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

1- محمود درويش، الديوان، الأعمال الكاملة، (2009)، رياض الرّيس للكتب والنشر، لبنان، دط. (المدونة)

2- أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم ابن منظور، لسان العرب، (2007)، دار صابر، بيروت، المجلد12، ج5.

3- قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، (1978)، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978.

ب- المراجع:

1- إحسان عباس، فن الشعر، (1979)، دار الثقافة، بيروت، دط.

2- بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد الحديث، (1994)، المركز الثقافي العربي، المغرب.

3- حيدر توفيق بيضون، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، (1991)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

4- عزّ الدين إسماعيل، الشّعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنّية والمعنوية، (1981)، بيروت، ط3.

5- مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، (1981)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1.

6- نوارة ولد أحمد، شعرية القصيدة في اللهب المقدس، (2008)، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، دط.

7- نعيم اليافي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، (1985)، دمشق.

8 –Oswald du crot tvc ctam, dictinnaire, encyclopedique des sciences du langue, 1972, edition du seuil, Paris.

ج– المقالات:

1– عدنان المبارك، الرمزية الشّعرية، (2002)، جريدة الزّمان، لندن، ع1293.

2- محمد دركوب، لقاء مع الشاعر محمود درويش، حياتي وقضيتي وشعري، (2011)، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، إيران، ع5.